20050413-0007-1

13 نيسان ؟... آه... عيد الجنون!

بقلم غسان تويني

في الساحة الكبيرة، حيث كانت تقام الاستعراضات العسكرية، ايام زمان، كانوا امس، ثلاثة، أربعة ينتظرون...

سأل واحد: اين الجيش؟ تأخر...

وتطلعوا الى السماء، لعلهم كانوا بعد يظنون انه لا يزال للبيت سقف!

قال آخر: نحن في القنيطرة...

اجابوه: لا، بل هذه بيروت لكنك لم تعد تعرفها... هي ساحة الشهداء!

- اي شهداء؟ تكاثروا علينا!

- اي شهداء؟... اي شهداء؟...

ما همك؟ نحن لم نعرف مرة شهيدا لا نستمر نحزّ به حتى بعد الشهادة!

ومضوا يفتشون عن الاستعراض.

- اوليس اليوم عيدا؟

- بلى... ذكرى 13 نيسان!

- 13 نيسان؟... آه... عيد الجنون!!!

❁❁❁

ما اغلاه هذا الجنون، وما اكفركم جميعا.

- في القنيطرة نحن؟ سأل واحد...

- لا، بل في السويس، او بور سعيد...

اجاب ثالث: مثلنا مثلهم الآن... ظننتم يا مجانين ان لبيتكم سقفا، وان في وسعكم ان تضحكوا على التاريخ الى الابد... ان تعيشوا سلما بلا ثمن، وترفا بلا حساب... ترفا فكريا كالترف الاقتصادي، كالترف السياسي... بلاد بلا وطن، ودولة بلا حكم، ودستور بلا حكومة، وحكومة بلا رجال، بل رجال بلا رجال، وشرائع بلا بوليس ولا جيش، ولا، ولا، ولا...

- ها هو الجيش، جاء للاستعراض!

- مجنون... هو جيش القتلى... القتلى من سواه طبعا... انظره، لم يكن مرة بهذا العديد... ما اجمل الشهداء يعودون للاستعراض... هم اتحدوا هناك... وانظر المشوهين والمعتوهين والجرحى وكل المتوجعين عنا... هؤلاء جيش!

وسأل آخر: هل يحتلوننا، ام هم هنا للاستعراض في العيد؟

اجابوا كلهم معا: لا... الاموات لا يحتلون الاموات... ارضنا باتت لها الآن حرمة الموت... الا تسمع السكون الرهيب؟

واستطرد واحد:

- خطيئتنا التاريخية اننا ظننا انه كان يمكننا الدفاع عن الارض بالنار التي تحرقها، وعن الوطن بالآلات التي تدمره، وعن السيادة بطرحها في اسواق الحمايات الوهمية والضمانات الواهية!

سأل آخر: لعل الجيش ينتظر الرئيس للاستعراض!

- رئيس الاموات؟ جمهورية ام مقبرة؟

- ها، ها، ها... (ضحك الموت) رئيس جمهورية الموتى... جميل اللقب!

ومر بالفعل جيش حقيقي، لكن احدا لم يستعرضه...

تساءلوا كذلك اذا كان هو الآخر قد جاء للاحتلال...

قالوا: من يحتل ماذا؟

- نحن كنا نريد ان نكون اسيادا في بلدنا... كانت السيادة اللبنانية على الارض اللبنانية هي مطلبنا... الغريب يقيم حاجزا على طريق بيتي ويطلب هويتي ويتنزه مسلحا، واذا اجرم لجأ الى حيث تعرف ولا وصول للقانون اليه... هل يجوز ذلك؟

- طبعا لا يجوز... ولكن، ماذا فعلت بالغريب وبالحاجز وبالسلاح وبالمخيم وبالسيادة؟

- حاربت... وبشجاعة وبطولة!... حتى الذين عقولهم كانت ضدي، قلوبهم كانت معي وعلي...

- نعم حاربت، ثم ماذا؟ السيادة يحميها لك الآن جيش آخر، بل جيوش، فهل هي السيادة هكذا؟ اوتظن ان ليس لهذه الحماية ثمن؟ ومن اين تدفع وقد اصبحت "لا شيء" يسود لا شيء؟... اما البوليس فتبخر، لا وصول له بالقانون الى مكان... لان الاجرام اصبح لبنان كله مخيما له... واما الحواجز، فتكاثرت كالاعاجيب، لم يعد حاجز يعرف لمن الحاجز الآخر، وكلها تتبادل النار حتى دنّست الرصاص وبهدلت السلاح... واما الهويات وجوده، ثم يعلمنون من هنا ويطيّفون من هناك؟

❁❁❁

وبينما كان المجانين يتحاورون، مر الجيش، ولم يستحل شيئا لانه لم يجد ما يستحق الاحتلال... اما هم، المجانين، فلا هم قاوموا، ولا تنبهوا لضرورة التصفيق للاستعراض، لان الجنود كان عالمها آخر، حيث لا ترى ولا تسمع ولعلها لن تعرف اي استعراض كان هذا...

❁❁❁

ومضى اصحابنا الثلاثة الاربعة يتنزهون بين الاطلال... لا، لم يكونوا يفتشون عن جيش... كانوا يبحثون عن فسحة نظافة وضوء.

وكانت الساعة قد قاربت الظهر، فجلسوا الى الحجارة واستمر الحوار:

- تعرف؟ وحده الخراب يوحي بالحقيقة، اتخيل الآن كيف كانت لينينغراد... ثلاث سنوات من الحصار والحرب، 900 يوم من القنابل والمجاعة... لا تزال امامنا سنتان!

- لكن لينينغراد كانت بيضاء بالثلج، ناصعة القلب... وخرجت من الحرب وقلوبها أنصع بياضا وعقول ابطالها مجللة بنور النصر. والشعب الروسي ليس عين الرمانة والشياح... لم يقتلوا أحداً في "البوسطة"!

- ما احلى ايام "البوسطات"... صارت عندنا حساسية... كل الجولات تبدأ بمجزرة في سيارة نقل... لو كنا نمشي على اقدامنا لما حصل شيء ربما!

- نمشي على اقدامنا مثل هذا الجيش... اكياس طحين هم العسكر!...

- اوتريدوننا ان نجوع ولا تأتي جيوش تطعمنا؟

❁❁❁

ودار فجأة حوار عاقل، لعله هو الجنون الحقيقي، بين اصحابنا الثلاثة الاربعة:

- ترى، هل يمكن بعد ان نلتئم شعبا واحدا، ودولة واحدة، وحكما واحدا؟

- ها... ها... ها... متى كنا، وهل كنا واحدا؟

- دويلات كنا، بل قبائل وعصابات... نطالب بالمشاركة في الحكم اذا سما بنا تفكير، لاننا كنا كلنا ننظر الى الحكم كأنه شركة... شركة مغانم واسلاب... كان جيفة فمات من فرط ما نهشناه وتناتشناه... لا نشبع!

- لنكن اصرح واكثر واقعية. أولسنا مجانين؟ انا مجنون بحب لبنان، الجبل الاخضر الحلو. اريده هكذا، او لا يكون...

- لن يكون، ذهب... زحل!

- حرقناه... دمرنا المدائن الصغيرة. سرقناها لا حبا بالسرقة بل لان الحقد على نظام معين تفجر اقوى منا، حقدا على حضارتكم، على الكفاية تجاور البؤس وتتجبر وتتكبر وتضحك منا...

- حضارة الكفاية بناها الجبلي جيلا بعد جيل بسواعده، تطحن الصخور وتسقي الارض عرقا ودموعا ودماء...

- فلتشرب الارض الآن، انها لن ترتوي... او تأكلون طحين الصخور وحجارة البيوت؟

- مجانين... حتى الجنون افلت زمامه... أويستعمر شعب ارضه؟

- تريدون ان تقولوا: "لا غالب ولا مغلوب؟"... زالت... سيكون هنالك غالب ومغلوب...

- بل المغلوب على امره هو كلنا، جميعا...

- لا... انا كنت مغلوبا على امري اصلا... كنت جائعا، فما اطعمتموني... وكنت عريانا فما كسوتموني... وكنت عطشانا، فدفعتموني الى شرب الدماء، وها هي نفسي، بعدما سكرت بها، تتقيأ الآن، وانا مجنون، مجنون!!!

- حطموا كل شيء...

- لا... حطموا ما لم يكن لهم منه غير الفرجة... المحروم لا يشبع من مناظر المتخمين.

- لماذا لم نقسم...

- وطنا للذين عندهم، ووطنا للذين ما عندهم شيء ولا وطن؟ ولا يثورون؟

الذين عندهم لا يثورون، او كنا نثور معهم...

❁❁❁

- الثورة، الثورة، ما اجملها...

- ختمت الثورة الفلسطينية في غير ارضها.

يوم كانت "الانظمة" تحارب، وقد اتهمتموها قبلا بالعمالة، لم تحاربوا ولم تثوروا... فنالت هي نصرها، سرقته منكم... فجئتم انتم تسرقون حربا ليست لكم، حربا بديلا، وتحرزون نصرا بدلا عن نصر في ثورة بديلة ثورة ضد عدو ليس العدو، وقد جعلتموه عنه بديلا...

- هذه الحرب، يا مجانين، كانت كلها حرب البدائل: لبنان بدل فلسطين، ارض مقدسة بدل الارض المقدسة... اللبناني حارب الفلسطيني لانه لم يحارب الاسرائيلي... والفلسطيني لانه لم يحارب الاسرائيلي... والفلسطيني حارب في اللبناني صورة الاسرائيلي الذي اقنع نفسه بانه عميله، فكيف لا يكون البديل؟

- لم تسترجعوا القدس، فاستشهدتم الدامور بديلا؟ وبيروت بديل القنيطرة التي لم تكن لكم بطولاتها؟

- لا... ليس بهذه البساطة يا رفاقي المجانين!... كانت الثورة في الاوج، في القمة، على رأس العالم، فأردتم تمريغها بالوحول... فثارت الثورة عليكم!

- وماذا نالت ونلتم؟... غرقت في الوحول. كان يمكن ان تطهرنا الثورة، ان تنقذنا نحن من اوحالنا، ففرقت معنا. أوليست تلك هي المؤامرة؟

- المؤامرة؟... كل هذه الاسلحة والذخائر، فضلا عن الرجال... وكل هذا الشجاعات وحكايات البطولات... كل هذا التمرد، كل هذا البذل... لو استخدم ذلك ضد العدو العدو، كم كان يصمد، وكم كان يكون جميلا الانتصار عليه؟...

- اية معركة مع العدو دامت قدّ حرب لبنان؟ واي غزو لمستعمرة في الارض المقدسة كان بقوة هذا الغزو؟ فهل اصبحنا الآن أقدر على استعادة حقوقنا السليبة؟

- المؤامرة يا مجنون هي ان حرب لبنان استنفدت قوى فلسطين فهزمتها مرتين: مرة لانها جعلتها تحتل غير الارض التي تطلب، فاذا ما عادت غدا تطلب ارضها، وجدت نفسها اضعف من ان تقدر على استعادتها... والمرة الاخرى لانها جعلتها تخسر، ولو ربحت الارض، القلوب والعقول التي كانت مزروعة بالولاء لفلسطين والشغف بثورة المحررين!

❁❁❁

- بدل ان توحد الثورة المجتمع الذي كانت تتمثل به، زادته فرقة وتمزيقا...

- المنطق جنّ؟... بل التاريخ كذلك: المسيحي لم يعد مسيحيا: كنت تدافع عن المسيحية بمحرماتها، وتحصن الاسلام بما حرم الله والانبياء... تخربطت المعادلات... صارت الثورة طائفية، كما التقدمية طائفية كما الرجعية ملك طائفة، واقلها انغلاقا على التقدم فاذا بها تقطع على نفسها الطريق...

❁❁❁

... وكانت الطريق قد بدأ الدخان ينقشع عنها، فظن الثلاثة الاربعة الذين كانوا يتحاورون ان الاستعراض قد بدأ والجيوش تطل.

تساءلوا مرة اخرى اذا كانت جيوشا، ام مواكب القتلى والجرحى والمعتوهين والمشوهين...

ام هم المخطوفون يعودون!

تهيأ لهم ان الامهات يهببن ينادين ابناءهن، والآباء يبكون...

ام تراه يكون موكب الثوار؟

ظن واحد انه موكب الرئيس الجديد، في شعنينة متأخرة، تتقدمه سعف النخل واغصان الزيتون، لان السلام كان قد تأخر كذلك...

ثم بدا الموكب كأنه طريق جلجلة طويلة. مسيح يحمل صليبه ككل مسيح... كما كل سقراط يشرب السم... وحدهم الانبياء والرسل والحكماء تقتلهم الحقيقة او يهجّرون؟

وقف اصحابنا، بعضهم اجلالا، وبعضهم متهيبا، وبعضهم استعدادا للهجرة الى لا مكان...

وكان بعضهم يريد الذهاب الى القدس عن الطريق المزروعة بالاطلال، الا انهم وجدوها الطريق الاطول، فندموا!

وتلاشى الموكب الكبير، واختفى الصليب واختفت السعف واغصان الزيتون ولم تظهر في الافق حتى الاسلحة التي كنا نبخترها في المناسبات لانه لم يعد في البلد رصاص... حتى الاسلحة اصبحت أشباح اسلحة.

❁❁❁

اما الرئيس، فكان بين اصحابنا المجانين الثلاثة الاربعة.

لم نعرف ايها كانت اقواله ولا الافكار... غالب الظن انه كان يقول كل الكلام بثلاثة او اربعة اصوات لان كل العقول اضطربت واختلطت الالسن.

ولانه كان لا بد لهذه المأساة من نهاية مفرحة ضاحكة، فقد انتخب المجانين رئيسا وسلموه مفاتيح القبور وشرائع القتل وتاريخ الحضارة التي تحطمت كالدمية من فخار، واسرار المد الثوري الذي ارتطم بحائط من كرتون، فانكسر واحترق الحائط حول الثوار والثائرين عليهم في آن معا.

❁❁❁

حكاية سدوم وعامورة هي؟

ام صلاة على رجاء قيامة العقل والكلمة؟

ام رؤيا انجيل كافر؟

ام رسالة من الملاك الشيطان؟

المجانين لن يصدقوا، اذا قرأوها، انها قصة وطن وشعب...

سنة من حياة الناس. ومع ذلك كان ثمة ناس يمرون من امامها، يتفرجون عليها كأنها لوحة على جدار التاريخ، او مسرحية وهمية على خشبة مستعارة...

خطر ببال البعض ان يصرخوا: قفوا، قفوا، كفانا...

وامتدت بعض الايدي الى المسرح لتخنق الممثلين... وآخرون حاولوا ان يمحوا مشاهد من اللوحة بدموعهم، فلم تَمّحَ.

لان الدماء التي تراكمت على اللوحة من 13 نيسان، الى 13 نيسان جمدها الزمن واسودت، فأصبحت حتى الدموع لا تقوى على غسلها.

لعل الشمس وحدها، اذا سمحوا لها بالدخول، تذيب جليد لينينغراد الاسود.

(*) افتتاحية "النهار" في 1976/4/14.